

إشكاليات الفلسفة الغربية المعاصرة

أستاذ المقياس: بوراس يوسف.

مقدمة: عادة ما يطلق إسم الفلسفة المعاصرة على تلك الفلسفة التي ظهرت في المئة عام الأخيرة أو أكثر من ذلك بقليل، وإن كان بعضها تمتد جذوره إلى أكثر من ذلك. فنعد منها الفلسفة البرغماتية، والظواهرية، والوجودية، والتحليلية باتجاهاتها، والبنوية، والتفكيكية، والتأويلية والواقعية الجديدة...

ويستدعي الحديث عن الفلسفة الغربية التعرض للخلفية التي أدت إلى ظهورها، وبالنظر إلى الارتباط الموجود بين مختلف العصور في تاريخ الفلسفة، حيث يبني اللاحق على السابق، فيمكن تتبع هذه الخلفية في هذا التاريخ ذاته، لكن قد لا يتسع المقام إلى إستعراض جملة تاريخ الفلسفة مما يستدعي التعرض للحلقة الأخيرة منه والسابقة عن هذه الفلسفة، والمتمثلة في الفلسفة الحديثة، نظرا للترابط التسلسلي بينهما، ولتعرض الطالب للفلسفات الأخرى اليونانية منها والمسيحية والإسلامية...

وإذا كانت الفلسفة اليونانية تحمل في خلفيتها ومضمونها طابعا أخلاقيا، والفلسفة الوسيطية (مسيحية ويهودية وإسلامية) تحمل خلفية ومضمونا دينيا، فإن الفلسفة الحديثة تأثرت بالنقلة النوعية التي حققها عصرها، والمتمثلة في العلم، يقول الأستاذ مهران: "إن موضوع الاهتمام في العصور الحديثة كان له طابع مختلف. إذ تميزت هذه العصور بعامل جديد، لم يغير في الجوانب الاقتصادية للمجتمعات فحسب، بل في جميع جوانب الحياة الأخرى سواء الاجتماعية أو السياسية أو الأخلاقية، وهذا العامل الجديد هو العلم"¹

ويرى مؤرخي الفلسفة أن العصر الحديث يختلف عن سابقه الوسيط فلسفيا من جهة تقلص سيطرة الكنيسة، وازدياد سلطة العلم. وقد كانت بداية الصراع بين العلم والكنيسة إبتداء من ظهور نظرية كبرنيكوس (1473 — 1543)، والتي شهدت تأثيرها الكبير مع الإضافات التي قدمها كل من كبلر وجاليليو في القرن السابع عشر، ولقد كانت نتيجة الصراع بينهما إندحار الكنيسة لصالح العلم، ليس على المستوى المعرفي فحسب ولكن على المستوى الاجتماعي أيضا " فقد ترك العلم آثاره الواضحة في الحياة العامة للإنسان وغير الكثير من النظم الاجتماعية... والسياسية والاقتصادية والفكرية"².

أولا: نتائج العلم الجديد على الفلسفة الحديثة: ولقد كان لانتشار سطوة العلم وسيطرته على شتى مجالات الحياة جملة من الآثار، أهمها

أ: الانتقال من النظر التأملي في العلم والذي يهدف إلى فهم العالم، إلى النظر العملي والمتمثل في تغيير العالم، وهو منظور براغماتي للمعرفة، لم يسبق التعامل وفقه.

¹ محمد مهران، محمد مدين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2004، ص19.
² المرجع نفسه، ص20.

ب: أدى إنتصار العلم على الكنيسة إلى إنتشار مفهوم التحرر الذي أدى بدوره إلى غلبة الطابع الفردي، وهو ما يظهر في أعمال الفلاسفة التي تغلب فيها الطابع الذاتي الخالص، وهو مانجده عند ديكارت الذي سلم بالوضوح الذي هو ذاتي، أو بذرات لايبنتز المنغلقة على ذاتها...

ت: تغير النظر إلى طبيعة الحركة بالنسبة للأجسام الجامدة خاصة، حيث ظلت فكرة وجود أرواح وراء تحريك الأجسام هي المسيطرة، ومن ذلك عدم حركة الأجسام الجامدة من ذاتها لخلوها من روح، إلا إذا تدخلت قوة خارجية. وهو الأمر الذي نفاه نيوتن، حيث قرر القانون الأول للحركة: (أن الجسم المتحرك يظل متحركاً ما لم يعترض طريقه عائق خارجي) وقد كان لهذه النظرية تأثيرها الكبير على كثير من النظريات الفلسفية اللاحقة³.

ث: مع الاكتشافات الحديثة لموقع الأرض مع نيوتن وعلم الفلك لديه ومكانتها في الكون باعتبارها جزءاً ضئيلاً منه تابع لغيره، غير متبوع، ولا مركز للكون، تضاءلت قيمة الإنسان التي تحولت من سيد هذا الكون إلى كائن يمثل جزءاً بسيطاً في هذا البناء الكبير.

ج: ولعل المتغير الأبرز هو بروز المنهج الإستقرائي إلى جانب المنهج الإستنباطي، هذا المنهج الرياضي في طبيعته ظل مسيطراً في مجال الفلسفة لعهود عدة. لكن مع التطورات التي لحقت بالرياضيات في العصور المتأخرة وتطور منهجها أدى إلى وجود نوع من التعاضد بين المنهجين ظهر في إستخدام لغة الرياضيات والصيغ الرياضية خصوصاً في التعبير على القوانين. وقد كان لهذا الأمرين نتيجتين على مستوى توجه الفلاسفة، توجه يذهب إلى إستعمال الرياضيات في الفلسفة إنطلاقاً من قدرتها على التعبير الدقيق على قضايا العلم، وطائفة توجهت رأساً إلى المنهج التجريبي باعتباره الأدوات الوحيدة الكفيلة بالتحقق من الموضوعات. وهو ما أفرز لنا مرستين العقلية والتجريبية.

إن ما نخلص إليه في الأخير أن العصر هو عصر العقل بامتياز، أرخت له الاكتشافات العلمية الباهرة، وذلك بفضل المنهج العلمي الجديد، إلا أن الغرور الكبير الذي أصاب إنسان هذا العصر أدى إلى ردة فعل عنيفة مثلتها خصوصاً النزعة الرومانسية.

ثانياً: الكانطية: نتيجة الصراع الكبير بين التيارين التجريبي والعقلي والذي أفرز نوعاً من الريبة والشك، وذلك نتيجة لسيطرة الفكر الميكانيكي، جاء كانط لينقذ العقل الأوروبي الحديث، دون أن يعني ذلك التبرأ من المذهب الميكانيكي.

حيث يرى كانت أن العالم التجريبي هو نتاج تركيب قامت به الذات الترانسندنتالية بين الإحساسات الغير منظمة والتي مصدرها العالم الخارجي، وأدوات مجهز بها العقل هي عبارة عن مقولات قبلية، حيث يطبق العقل قوانين الطبيعة والرياضيات والمنطق على العالم الخارجي لفهمه دون أن تطبق عليه هو. ولكن في هذه الحالة تصبح معرفة الشيء في ذاته غير ممكنة — والمقصود هنا المعرفة التي تتجاوز المحسوسات — فالمعرفة تنحصر في الحدوس الحسية. وهو ما يعني بالتالي إنكار الميتافيزيقا.

وكخلاصة للأمر يمكن القول بوجود ميدانين للحقيقة في منظور كانت: "العالم التجريبي أو الظاهري (الفينومان) الذي يخضع كله تمام الخضوع لقوانين الميكانيكا، وعالم الوجود في ذاته، أو النومان، الذي لا قدرة لنا على معرفته معرفة عقلية"⁴.

³ المرجع نفسه، ص22.

⁴ إم بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: عزت قرني، عالم المعرفة، الكويت، بد تاريخ، ص27.

وقد اعتبر هذا الطرح قفزة كبيرة في عالم الفلسفة، إذ ظل تأثيرها قائما طيلة القرن التاسع عشر، وحت القرن العشرين، ويظهر ذلك في الوضعية والكانطية الجديدة.

ثالثا: النزعة الرومانسية باعتبارها ردة فعل عن النزعة العقلية: جاءت هذه النزعة كردة فعل ضد النزعة العلمية التي سادت من القرن السادس عشر إلى غاية بدايات القرن الثامن عشر، حيث تأثر بها الجميع سواء من ساندها أو وقف ضدها، وتبدو قيمتها في تأثيراتها على الفلسفة المعاصرة.

تنتقل النزعة الرومانسية من منطلق أن الإنسان لا يعيش بالحقيقة وحدها، كون حقيقته كإنسان أو حيوان تتجاوز كونه عاقل، وبالتالي فهي ضد التأويل العقلي للخبرة البشرية، فالحياة أوسع من الذكاء، والعالم أوسع من كونه نظاما أليا.

وكان روسوا هو رائد هذه الحركة، حيث خالف نيوتن في نظريته للطبيعة البشرية "فالإنسان عنده ليس هو ذلك المخلوق الذي يفكر تفكيراً عقلياً منطقياً ليحكم على الأشياء من زاوية منفعتها له أو لأصحابه، بل هو ذلك المخلوق الذي يشعر ويتأثر"⁵. وهو يرى أن مهمة التربية المحافظة على ما هو طبيعي فينا، باعتبار كل المكتسبات الاجتماعية من حكمة وأخلاق وعادات هي إفساد لهذه الطبيعة، وبالتالي تكون مهمة التربية وفقه هي تجنب الرذائل والجهل، بدل اكتساب الخير والحكمة، وعليه تكون الغرائز وكل ما هو أولي في طبيعتنا الأجدر بالتنشيط والمراعاة، لا ما يكون مصدر خبراتنا الاجتماعية، فالإنسان الكامل هو ما تكتمل فيه الشعور والعاطفة لا العقل والحكمة.

في التاريخ الأوروبي كانت العقلانية عند هذا المجتمع هي السلم والاستقرار في مقابل الفوضى التي كانت تهدد هذه المجتمعات، لذلك جرى العمل وفقها، لكن منذ الثورة الفرنسية ساد نوع جديد من الحراك تمثل في روح المخاطرة شكلها في البداية نابليون والثورة الفرنسية، ولقد كان لهذا الأمر مظاهر منها الثورة على الأنظمة الأرستقراطية من طرف الفلاسفة الراديكاليين، وحركة التجارة الحرة، والاشتراكية الماركسية، وظهر التيارات الرومانسية التي كانت في تناقض مع الإتجاه الصناعي.

ويعتبر أهم إنجاز لهذه النزعة الحركة الفردية، إذ كان شعارهم دائما (كن ذاتك ونمي شخصيتك)، وهو ما كان مبدء أساسيا للحركة الرأسمالية، كم يمكن التأكيد على العنصر الجمالي الذي أضافته إلى الحياة العملية.

إذا يعتبر الإتجاهان الغالبان في تشكيل الفلسفة الحديثة هما هذان: الإتجاه العلمي، والإتجاه الرومانسي، حيث كان لهما التأثير الأبرز على الفلسفة المعاصرة في ما بعد.

رابعا: التيارات الفلسفية في القرن التاسع عشر: الأسلوب الذي سيطر في هذا العصر على تناول القضايا كان المنهج التركيبي الذي تفوق على التحليل، والذي أستعمل خصوصا في الفلسفة المثالية الألمانية، باعتبار الفكر في سيرورة دائمة، ومثل هذا الإتجاه بالخصوص كل من فشته وشلنج وبالخصوص هيغل.

وانطلق هيغل من رؤية تعتمد على سيرورة جدلية تعتمد على القضية ونقيضها والتركيب بينهما في سبيل تحقيق الحقيقة المطلقة، هذه الفلسفة ذات الإتجاه العقلي الشامل يظهر فيها الطابع الرومانتيكي وذلك بسبب طابعها الديناميكي التطوري⁶.

وبعد هيغل ظهرت جملة من الفلسفات المادية متأثرة بالعلم، نفت أي دور للعقل — بل العقل ذاته عبارة عن مادة — ودافعت عن الحتمية الشاملة (الميكانيكية)، مثلها خصوصا فيورباخ، وموليشط، وبوخنر وكارل فوجت.

⁵ محمد مهران، محمد مدين، ص27.

⁶ إم بوشنسكي، ص29.

ثم ظهرت الوضعية وعلى رأسها أوجست كونت في فرنسا، حيث رأت أن دور الفلسفة هو تجميع لنتائج العلم (بالمعنى الميكانيكي).

هذه المذاهب المادية تعززت أيضا بنظرية أصل الأنواع لشارلز دارون "الذي فسر تطور أنواع الكائنات الحية تفسيرا ميكانيكيا بحثا في كتابه أصل الأنواع"⁷.

ورغم الهالة والسطوة الكبرى التي أصبحت عليها المذاهب المادية والتطورية إلا أن المثالية عادت لتجد نفسها موطن قدم في إنجلترا مع توماس هيل، وفي ألمانيا مع الكانتية الجديدة...دون أن يعني هذا سيطرة المثالية، إذ ظل المذهبين يسيران معاً، وإن اتفقا في ثلاث نقاط هي: بناء النظم الفلسفية، إتجاه عقلي إزاء العالم التجريبي، استحالة تجاوز الظواهر.

خامسا: بزوغ الفلسفة المعاصرة: (أزمة العلم) إن الانتقال من الفلسفة الحديثة إلى الفلسفة المعاصرة لن يكون حدثا سهلا، بل هو يعني تغيرا جذريا لأسس ومعالم الفلسفة، وفوق ذلك هو تغير للمحيط والقيم والمبادئ الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهو ما يعني حدوث أزمة ما أدى إلى هذا التغير، ليس في الحياة العقلية والروحية فحسب، بل وما يقابله في المستوى الاجتماعي. وكنتيمة عامة ليس في الاتجاهات الفلسفية فحسب، بل في طبيعة هذه الفلسفة (أو الفلسفات) على وجه التحديد.

ويمكن رد الأزمة إلى ثلاث عوامل أساسية: يتمثل العامل الأول في أزمة علم الطبيعة و أزمة علم الرياضيات، والذي ترك تطورا في الفكر التحليلي، وهدم بعض المواقف العقلية. والعامل الثاني يتمثل في ظهور منهجين جديدين في المعرفة هما: المنهج الرياضي المنطقي والمنهج الفينومينولوجي. والعامل الثالث يتمثل في ظهور تصورات جديدة تمثلت خصوصا في: التصور اللاعقلي، والاتجاه الميتافيزيقي الجديد، كما أن هذه العوامل والنتائج تتبادل التأثير بينها⁸. ويمكن الحديث عن هذه العوامل باختصار:

العامل الأول: أ- أزمة الفيزياء والرياضيات:

1: الأزمة في علوم الطبيعة: (الفيزياء) سيطر الاتجاه الميكانيكي منذ نيوتن، حيث ظل الاقتناع سائدا بكون العلم هو ترجمة للواقع، والسيطرة كانت لمذهب الحتمية الذي يعني أنه إنطلاقا من الثبات والانتظام في حدوث الظواهر وفي تبادل التأثير بينها فيمكن التنبؤ بأي ظاهرة كانت، بولسطة الحساب العلمي، ومنه يمكن القول بسيطرة النظام على العالم. كما يمكن تسجيل الموقف القائل ببساطة المادة إنطلاقا من قولهم بكون الذرة هي أبسط مكون لها.

2: لكن فجأة تم التشكيك في كل هذا، ولقد إتبع التشكيك مسارا تصاعديا بدأ مع فلاسفة العلم عندما صوبوا نقدهم إلى أسس النظرية النيوتنية والمتمثل في مبدأ الحتمية، وفي القول ببساطة المادة، وعموما ذهبوا إلى القول بأن تفسيرات العلم ذاتية تتجه إلى موقف العالم أو تصوره، كما وصلوا إلى نتيجة مفادها أن العلم نفعي بالدرجة الأولى فهو لا يعطينا الحقيقة، وذلك لكونه نسبي، وبعيد كل البعد عن أي إطلاقية

لكن الأثر الأبرز كان لنظريتي النسبية والكوانت التي هدمتا كثير من الأفكار العلمية التي أشاعتها فيزياء نيوتن. فبالنسبة لنظرية النسبية فهي ترى أن "المكان والزمان والكتلة والطاقة حيث احدثت نقلة نوعية في الفيزياء النظرية والفلك في القرن العشرين عند نشرها لأول مرة، عدلت الأسس النظرية لميكانيكا نيوتن التي كانت قائمة منذ 200 عام. لقد قامت نظرية النسبية بتحويل مفهوم الحركة لنيوتن، حيث نصت أن كل الحركة

⁷ المرجع نفسه، ص 29

⁸ المرجع نفسه، ص 34.

نسبية. ومفهوم الزمن تغير من كونه مطلق ويسير إلى الأمام دائماً، إلى كونه نسبي وجعله بُعداً رابع يدمج مع الأبعاد الثلاثة المكانية. وجعلت الزمان والمكان شيئاً موحداً بعد أن كان يتم التعامل معهما كشيئين مختلفين. وجعلت مفهوم الزمن يتوقف على سرعة الأجسام، وأصبح تقلص وتمدد الزمن مفهوماً أساسياً لفهم الكون. وبذلك تغيرت كل الفيزياء الكلاسيكية حسب مفهوم نيوتن. وأدت مفاهيم النظرية النسبية إلى ظهور علوم جديدة كلياً مثل: الفيزياء الفلكية وعلم الكون. بالإضافة لإستخدامها في تطبيقات حياتية كنظام الملاحة العالمي⁹ "GPS".

وأما بالنسبة لنظرية الكوانتم، أو الكم فيمكن تعريفها بقولنا أن " الكم هي مجموعة من النظريات الفيزيائية التي ظهرت في القرن العشرين، وذلك لتفسير الظواهر على مستوى الذرة والجسيمات دون الذرية وقد دمجت بين الخاصية الجسيمية والخاصية الموجية ليظهر مصطلح ازدواجية الموجة-الجسيم، وبهذا تصبح ميكانيكا الكم مسؤولة عن التفسير الفيزيائي على المستوى الذري كما أنها أيضاً تطبق على الميكانيكا الكلاسيكية ولكن لاتظهر تأثيرها على هذا المستوى، لذلك ميكانيكا الكم هي تعميم للفيزياء الكلاسيكية لإمكانية تطبيقها على المستويين الذري والعيادي. تسميتها بميكانيكا الكم يعود إلى أهمية الكم في بنائها (وهو مصطلح فيزيائي يستخدم لوصف أصغر كمية من الطاقة يمكن تبادلها بين الجسيمات، ويستخدم للإشارة إلى كميات الطاقة المحددة التي تنبعث بشكل متقطع، وليس بشكل مستمر). كثيراً ما يستخدم مصطلحي فيزياء الكم والنظرية الكمية كمرادفات لميكانيكا الكم. وبعض الكتاب يستخدمون مصطلح ميكانيكا الكم للإشارة إلى ميكانيكا الكم غير النسبية.

2- أزمة الرياضيات والمنطق الرياضي: ويتعلق الأمر بأزمة الأسس التي ظهرت في الرياضيات: وذلك في مجالين، أولهما الهندسة الإقليدية، وثانيهما نظرية المجموعة. حيث كان الأمر يتعلق بمسألة الأسس، فما كان يعتبر بديهيات لا يقوم علم الرياضة إلا بها، ما هو في الواقع إلا مجرد مسلمات أو قضايا ليست يقينية على الإطلاق، وهو ما نبه إلى ضرورة التحليل الدقيق للمفاهيم التي تبدو في الظاهر بسيطة، وإلى تركيب النظم الرياضية ابتداء من المسلمات.

أما بالنسبة للمجموعات فقد اكتشف العلماء في نهاية القرن التاسع عشر ما يسمى بالمفارقات (paradoxes) وهي ما تعني استنتاجات متناقضة انطلاقاً من مسلمات بسيطة وواضحة في الظاهر، برغم صحة طريق الاستنتاج، وهو ما أفضى إلى انهيار نظام الأسس في حد ذاته في الرياضيات

أما على مستوى المنطق، وبعد الردة التي حدثت ضده منذ ديكارت والفلاسفة التجريبيين الذين استعاضوا عنه إما بالرياضيات أو الحدوس الحسية، فقد ظهر كوكبة من المناطق المعاصرين كان على رأسهم جورج بول وليبننتز ومورغان، الذين نقلوا المنطق من لغة الكيف إلى اللغة الرمزية، هذا الأسلوب الذي ما فتئ يتطور ويجد له أنصاراً جدداً، إلى غاية بدايات القرن العشرين مع هوايتهد وشرودرشر وبيانو وفريجه وبتراند راسل.

ب - أزمة العقلانية: بالإضافة إلى ما سبق فقد أدت هذه الاكتشافات إلى تغيير الإشكاليات الخاصة بفلسفة العلوم، حيث تم وضع مفاهيم ونظريات ومناهج العلم موضع تساؤل ومراجعة، وأصبح الشغل الشاغل للفلاسفة المعاصرين نمو المعرفة العلمية وتقديمها عبر تاريخ العلم، الذي تمتد جذوره من حضارة مصر وما بين النهرين إلى وقتنا الحالي، مما أدى إلى تصور جديد لطبيعة التقدم في العلم "فالمعرفة العلمية لم تعد سكونية ثابتة وتتطابق مع الخبرة الحسية ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، بل أصبحت ديناميكية وكونت علاقات مع المعارف الأخرى، وهذا ما أدى إلى التنظير لمعرفة علمية جديدة تطرح إشكاليات معرفية مغايرة للسابقة"، مما أدى إلى ظهور أزمة العقلانية، حيث العقل ذاته أعلن ثورة على المبادئ والمعارف التي أنشأها وشكك في صلاحيتها، وأصبح بذلك ظاهرة كبقية الظواهر الأخرى يتغير ويتحول، فتأسست العقلانية العلمية المعاصرة، مغايرة للعقلانية الكلاسيكية التي كانت سائدة منذ القدم وازدهرت مع ديكارت وسبينوزا وليبننتز وكانط. فالعقلانية و

فلسفة المعرفة تمثل أحد قسيمي الفلسفة الفرنسية، ويمثل هذا التيار كفاييس، باشلار، كانغيلم و كويري، بينما القسم الأول يتمثل في فلسفة التجربة، المعنى و الذاتية من ميرلوبونتي الى سارتر.

فبداية التحول كان بالاكشافات العلمية وبظهور الهندسات اللاإقليدية، فالعقل لم يتجدد فحسب بل اقتنع بإمكانية تجده اللامحدود، ولهذا استعاض الفلاسفة والرياضيون عن العقلية الديكارتية بعقلية معاصرة، واندلعت معركة كبرى بين العقل المدرسي والعقل الحديث فبعد أن كانت السيادة في الفيزياء النيوتينية لمكان مطلق، طول مطلق، زمان مطلق، أصبحت السيادة في الفيزياء الاينشتينية للمكان و الزمان النسبيين، وهذا ما أكده باشلار¹⁰.

¹⁰ زبيدة مونية بن ميسي، فلسفة الرياضة عند جان كفاييس، رسالة دكتوراه، جامعة منتوري بقسنطينة، 2008، ص32.